الثقافة: مفاهيم ومقاربات
(نحو رؤية سوسيو- أنتروبولوجية)

الدكتور جميل حمداوي

نظريات الثقافة ومقارباتها المنهجية

يمكن الحديث عن مجموعة من المقاربات لدراسة الظواهر الثقافية في بعدها السوسيولوجي، ويمكن حصرها فيما يلي:

المطلب الأول: المقاربة الأنتروبولوجية للثقافة

تهدف هذه المقاربة إلى دراسة موضوع الثقافة الإنسانية وصفا وتحليلا وتأويلا، بدراسة المجتمعات البدائية القديمة، والمجتمعات المحلية والريفية، ومجتمعات المدينة. وترتكز هذه المقاربة على رصد بنى المجتمعات الثقافية، مهما كان نوعها، بتحديد سماتها وخصائصها وعناصرها، ووصف عمليات التأثير والتأثر، وكيفية انتشار الثقافة في هذه المجتمعات، وعوامل ذلك؛ وتحديد دور الثقافة في بناء الشخصية الأساسية للإنسان؛ مع استجلاء مختلف الفوارق الموجودة بين الإنسان والحيوان، مع العلم أن الذي يميز الإنسان عن الحيوان هو الثقافة والسلوك الحضاري.

كما تدرس هذه المقاربة الثقافة العامة للإنسان والثقافات الفرعية الأخرى، مثل: ثقافة سكان الريف، وثقافة سكان المدن، وثقافة سكان الجبال، وثقافة سكان السواحل ... إلخ، وتبيان أثر الثقافة في السلوك الفردي والجماعي، وتصنيف الثقافة إلى أنماطها (الثقافة المثالية والثقافة الواقعية) ، واستجلاء الخصائص العامة للثقافة (ثقافة كونية وإنسانية وفطرية وعامة ومكتسبة ...) .

إذاً، تدرس المقاربة الأنتروبولوجية الثقافة في مختلف أنظمتها الرمزية، واللغوية، والسياسية، والمجتمعية، والدينية، والأدبية، والفنية، والعلمية، والفكرية، وكذلك في

علاقة وطيدة بالمنتجات الاقتصادية والتقنية والآلية التي استعملها الإنسان لإشباع حاجياته ورغباته العضوية والغريزية والشعورية واللاشعورية.

إذاً، "تدرس الأنتروبولوجيا الثقافية موضوع" الثقافة "، والمعنى المبسط لذلك المفهوم هو طريقة معيشة مجتمع ما، سواء أكان ذلك المجتمع بدائيا

أم متخلفا أم ناميا أو متقدما. والثقافة من صنع الإنسان وهي ظاهرة طبيعية تخضع لقوانين الطبيعة مثل قانون التطور وقانون البقاء للأصلح؛ ولذلك يدرسها هذا الميدان بمنهج علمي لايختلف عن المنهج المستخدم في العلوم الطبيعية لدراسة ظواهر الطبيعة الأخرى. إن قدرة الإنسان على إنتاج الثقافة هي أهم خاصية تميز الإنسان عن باقي الثدييات والحيوانات جميعا، ومن أهم عناصر الثقافة اللغة، فعن طريقها تجمع وتسجل الثقافة وتنقل من جيل لآخر فيمكن نموها وتقدمها، كما أن الثقافة تزود اللغة بمعظم مضموناتها، فهي التي تعطي الإنسان الموضوعات التي يتكلم عنها، وتشمل الثقافة كذلك كل ما يصنع الإنسان من عناصر المادة مثل: الملبس والمباني والآلات والأدوات التي تزداد كثافة كلما تقدم الإنسان." [١]

وقد ظهرت هذه المقاربة مع العلامة الإنجليزي إدوارد تايلور (Edward Tylor) منذ القرن التاسع عشر الميلادي، وانتشرت مع مجموعة من العلماء، أمثال: مورجان، وروبرتسون سميث، وفريزر، وباندلبير، وكاشينج، ودورسي، وفليتشر، ولوي، ومين، وماكلينان، وبت ريفز، وباخوفين، ...

(١) -عدنان أحمد مسلم: نفسه، ص:١٦١ - ١٦٢.

وتنتمي نظريات هؤلاء الرواد والعلماء الباحثين في مجال الأنتروبولوجيا الثقافية إلى "المدرسة التطورية" "التي تهتم بالبحث عن نشأة المجتمع الإنساني والثقافة، ومحاولة رسم صورة عامة لتطور الثقافة منذ القدم. وقد انتشر الاتجاه التطوري في معظم العلوم الاجتماعية في ذلك الوقت بسبب تأثير نظرية (داروين) في التطور العضوي، وأذكر على سبيل المثال نظرية العلامة الأمريكي مورجان (Lewis Henry Morgan) (١٨٨١ - ١٨١٨ م) الخاصة بتطور المجتمع الإنساني من حالة المجتمع البدائي القديم إلى حالة المجتمع المدني الحديث [١]."

ومن باب العلم، فقد ظهر الاتجاه التطوري في القرن التاسع عشر الميلادي. ويرى هذا الاتجاه الأنتروبولوجي أن الحضارة الإنسانية قد تطورت من المرحلة البدائية إلى المرحلة المتحضرة أو المتمدنة. ويعني هذا أن هذا الاتجاه يدرس حضارة الشعوب البدائية في نشأتها وتاريخها وتطورها، ويقارنها بحضارات الشعوب المتقدمة وثقافاتها، على أساس أن المرحلة الراهنة هي مرحلة عليا في سلم تطور الحضارة البشرية.

ومن هنا، فالأسرة الطوطمية هي الشكل الأول لأنواع الأسرة. في حين، تعد الديانة الطوطمية هي الديانة الأولى التي قامت عليها الديانات العالمية الراهنة. وما يعيب هذا الاتجاه أنه يقوم على مبدإ الافتراض في دراسة حضارات الشعوب؛ وهذا راجع إلى قلة الوثائق والمعطيات والبيانات التاريخية والمستندات اليقينية.

ومن أهم أعضاء هذا الاتجاه لويس هنري مورغان (Lewis Henry Morgan) ، وإدوارد تايلور (Edward Tylor) ، وجيمس جورج فريزر (James George Frazer) ...

(١) - عدنان أحمد مسلم: نفسه، ص:١٦٤.

المطلب الثاني: المقاربة التاريخية

تعنى هذه المقاربة بتطور الثقافة في بعدها الزمني والتاريخي، مع تتبع الصيرورة الثقافية في الزمان والمكان، كما هو الحال عند الأمريكي فرانز بواز (Franz Boas) [١] وهرسكوفيتش (Herskovits) . وتهتم هذه المقاربة التي تندرج ضمن المدرسة التاريخية بدراسة ثقافات العشائر والقبائل في إطار نطاقها الجغرافي والثقافي، مع إعادة بناء هذه الثقافة في الماضي، واستجلاء تاريخها بغية مقارنتها بباقي تواريخ المناطق الثقافية الأخرى المجاورة أو الكائنة في مجال ثقافي واحد، بغية رصد القوانين الثقافية الثابتة التي تتحكم في تطور هذه الثقافات. بيد أن هذه القوانين ذات طابع نفسي ليس إلا. وبتعبير آخر، تدرس هذه المقاربة مختلف الصلات الثقافية والجغرافية بين الثقافات، والبحث عن آليات التثاقف أو المثاقفة أو التبادل الثقافي.

المطلب الثالث: المقاربة البنيوية

تصدر المقاربة البنيوية من منطلق لساني. إذ تتعامل هذه المقاربة مع الظواهر الثقافية وفق رؤية بنيوية لسانية سكونية محايثة، بهدف البحث عن القوانين الثابتة التي تتحكم في مختلف الظواهر الثقافية المتعددة والمتنوعة، والبحث عن دلالة الأشكال الثقافية.

إذاً، يهدف الاتجاه البنيوي إلى دراسة الظواهر الأنتروبولوجية في ضوء اللسانيات النصية كما طرحها فرديناند دوسوسير (Ferdinand de Saussure) ، بالتوقف عند البنى الشكلية لهذه الظواهر، والتعامل معها سانكرونيا، دون استحضار المعطيات التاريخية والمرجعية.

(١) - Franz Boas : Race, Language and Culture (١٩٤٠) , New York, Maxmillan.

ومن أهم ممثلي هذه المقاربة كلود ليفي شتراوس (Claude Levi-Strauss) الذي درس ثنائية الطبيعة والثقافة [١]، وتناول أيضا البنيات الأساسية للقرابة ضمن منهجية بنيوية لسانية [٢]؛ وبيير بورديو (Pierre Bourdieu) في مؤلفه (من أجل معنى تطبيقي) [٣]؛ وفرانسواز هيريتيي (Francoise Heritier) في كتابها (تعقيدات العهد) [٤]؛ وفيليب ديسكولا (Philippe Descola) في كتابه (ما وراء الطبيعة والثقافة) [٥] ...

(١) - Claude Levi-Strauss : Anthropologie structurale, Paris, Plon, juillet ١٩٥٨.

(٢) - Claude Levi-Strauss : Les Structures elementaires de la parente, Paris, La Haye, Mouton, ١٩٦٧.

(٣) - Pierre Bourdieu, Le Sens pratique, Paris, Les Editions de Minuit, coll. «Le sens commun», ١٩٨٠, ٤٧٥ p.

(٤) - Francoise Heritier-Auge et Elisabeth Copet-Rougier (edition et presentation) , Les Complexites de l'alliance, Vol. I, Les Systemes semi-complexes, Montreux, Gordon and Breach Science Publishers ; Paris, Editions des Archives contemporaines, ١٩٩٠.

(٥) - Philippe Descola .Par-dela nature et culture, Paris, Gallimard, «Bibliotheque des sciences humaines», ٢٠٠٥.

المطلب الرابع: المقاربة البنيوية الوظيفية

لاتكتفي هذه المقاربة بدراسة الظواهر الثقافية من خلال بناها الداخلية، بل تنفتح عن الخارج بالبحث عن وظائفها، وربط البنية بالوظيفة. أي: ربط السلوك الثقافي للإنسان بالحاجات الأصلية والفرعية للإنسان. لذا، ترتبط هذه المقاربة بالإجابة عن سؤال "لماذا؟" .

ومن هنا، تتبني المقاربة الوظيفية على النسق والوظيفة، من خلال تشبيه المجتمع بالكائن العضوي الحي. بمعنى أن المجتمع يتكون من مجموعة

من العناصر والبنيات والأنظمة. ويؤدي كل عنصر من هذه العناصر وظيفة ما داخل هذا الجهاز المجتمعي. وبهذا، يترابط كل عنصر في النسق بوظيفة ما. ومن ثم، فالمجتمع نظام متكامل ومترابط ومتماسك، يهدف إلى تحقيق التوازن والحفاظ على المكتسبات المجتمعية. ومن ثم، يقوم الدين والتربية - مثلا- بالحفاظ على توازن المجتمع.

وخير من يمثل هذه المقاربة الفرنسي إميل دوركايم، والأمريكيان تلكوت بارسونز (Talcott Parsons) [١] وروبرت ميرتون (R.Merton) [٢] على سبيل التمثيل. وقد كان لهذه النظرية إشعاع كبير في سنوات الخمسين من القرن الماضي.

ويعني هذا أن النظرية الوظيفية تعتبر "المجتمع نظاما معقدا تعمل شتى أجزاؤه سويا لتحقيق الاستقرار والتضامن بين مكوناته. ووفقا لهذه المقاربة، فإن على علم الاجتماع"

(١) - Parsons, Talcott: The social System.tavistock, London, ١٩٥٢.

(٢) - Merton, Robert K: Social theory and social structure.Glencoe, Free Press, ١٩٥٧.

استقصاء علاقة مكونات المجتمع بعضها ببعض وصلتها بالمجتمع برمته. ويمكننا على هذا الأساس أن نحلل، على سبيل المثال، المعتقدات الدينية والعادات الاجتماعية، بإظهار صلتها بغيرها من مؤسسات المجتمع؛ لأن أجزاء المجتمع المختلفة تنمو بصورة متقاربة بعضها مع بعض.

ولدراسة الوظيفة التي تؤديها إحدى الممارسات أو المؤسسات الاجتماعية، فإن علينا أن نحلل ما تقدمه المساهمة أو الممارسة لضمان ديمومة المجتمع. وطالما استخدم الوظيفيون، ومنهم كونت ودركايم، مبدأ المشابهة العضوية للمقارنة بين عمل المجتمع بما يناظره في الكائنات العضوية. ويرى هؤلاء أن أجزاء المجتمع وأطرافه تعمل سويا، وبصورة متناسقة، كما تعمل أعضاء الجسم البشري، لما فيه نفع المجتمع بمجمله. وليتسنى لنا دراسة أحد أعضاء الجسم، كالقلب على سبيل المثال، فإن علينا أن نبين كيفية ارتباطه بأعضاء الجسم الأخرى ووظائفه. وعند ضخ الدم في سائر أجزاء الجسم، يؤدي القلب دورا حيويا في استمرار الحياة في الكائن الحي. وبالمثل، فإن تحليل الوظائف

التي يقوم بها أحد تكوينات المجتمع يتطلب منا أن نبين الدور الذي تلعبه في استمرار وجود المجتمع، ودوام عافيته. "[١]"
ومن هنا، تنبني النظرية الوظيفية على مجموعة من المبادئ والمفاهيم الأساسية، مثل: العنصر، والوظيفة، والنسق، والعلاقات المختلفة، والبناء الاجتماعي، والمشابهة العضوية، والدور، والمكانة الاجتماعية، والمتطلبات الوظيفية، والبدائل الوظيفية، والمعوقات

(١) - أنتوني غيدنز: علم الاجتماع، ترجمة: فايز الصياغ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م، ص:٧٤.

الوظيفية، والوظائف الظاهرة، والوظائف الكامنة، والجزء في خدمة الكل، والتضامن العضوي، والمحافظة والاستقرار، والنظام والتوازن، والأدوار الحيوية، والاتساق والانسجام، والتماسك الاجتماعي مقابل مبدإ التجزئة والصراع ..
بيد أن البنيوية الوظيفية هي امتداد للمدرسة الوظيفية الكلاسيكية، على أساس أن النظام المجتمعي مرتبط بوظيفة ما. أي: تهتم هذه المقاربة بتحديد الدور الذي يقوم به عنصر ما داخل النسق الكلي على غرار الجسم الإنساني الحي. بمعنى أن كل عنصر يؤدي دورا معينا، أو يقوم بوظيفة أساسية داخل الكل المجتمعي، أو يساهم بعمل ما داخل النظام الثقافي.
ومن أهم رواد هذه المقاربة أرنولد فان جينيب (Arnold Van Gennep) ، وبرونيسلاف مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski) [١] ، ورادكليف ريجينالد براون (Alfred Reginald Radcliffe-Brown) [٢] ، وإدوار إيفان بريتشار (Edward Evan Evans-Pritchard) [٣] ...
هذا، ويرتبط النظام أو النسق الثقافي والمجتمعي عند مالينوفسكي بأداء احتياجات أصلية وفرعية. وهكذا، يرى الباحث أن "ثقافة أي مجتمع تنشأ وتتطور في إطار إشباع"

(١) - Bronis?aw Kasper Malinowski : Une theorie scientifique de la culture et autres essais, Maspero/La Decouverte, ١٩٧٠ .

(٢) - Alfred Reginald Radcliffe-Brown : Structure et fonction dans la societe primitive, ١٩٦٨
(٣) - E. E. Evans-Pritchard. Les Nuer. Description des modes de vie et des institutions politiques d'un peuple nilote, texte original publie en ١٩٤٠. Trad. de l'anglais par Louis Evrard, ١٩٦٨, Gallimard.

الاحتياجات البيولوجية للأفراد، والتي حصرها في التغذية والإنجاب والراحة البدنية، والأمان والاسترخاء، والحركة والنمو. وتنشأ النظم الاجتماعية عادة لتحقيق تلك الرغبات، فنجد - مثلا- أن الزواج والأسرة يشبعان الحاجة الجنسية، ويؤديان وظيفة الإنجاب والتربية، كما أن المسكن والملبس يمكنان الجسم من الحصول على القدر اللازم من الراحة والتوافق البدني والنفسي. ولكي تستمر الثقافة في أداء وظيفتها من ناحية إشباع تلك الحاجات الإنسانية الضرورية فمن الضروري إذاً في رأي مالينوفسكي أن تتوافر اللوازم المادية كأدوات الصيد والحرب (مثلا) ، ولابد من وضع قواعد ونظم واجبة الاحترام والطاعة والتطبيق لإحكام الضبط الاجتماعي، علاوة على ضرورة وجود تقسيم للعمل على أساس الجنس والسن، وتحديد الأدوار والمكانات بين الأفراد مما يؤدي إلى نشوء تنظيم اجتماعي متماسك له صفتا الاستقرار والاستمرار. "[١]"
أما رادكليف براون، فيختلف عن مالينوفسكي في تفسيره للثقافة في إطار بيولوجي، بالمماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة الوظيفية. ويعني هذا أنه يستفيد من آراء إميل دوركايم وسبنسر في تفسير الظاهرة الاجتماعية تفسيرا عضويا وبيولوجيا. بينما ركز إيفانز بريتشار على المجتمعات البدائية بغية دراسة نظمها الاجتماعية والثقافية، انطلاقا من منهجية بنيوية وظيفية تدرس الأنساق الكلية في علاقتها الوظيفية.
وعليه، إذا كان الاتجاه التطوري يعقد مقارنة بين الشعوب البدائية والشعوب المتحضرة الراهنة، فإن الاتجاه البنيوي الوظيفي يدرس الثقافات أو الحضارات البدائية في نسقها الثقافي البنيوي الثابت. ويعني هذا أن الاتجاه الوظيفي يدرس عناصر الثقافات والحضارات القديمة في إطارها أنساقها الكلية، مع تبيان وظيفة كل عنصر داخل هذا النسق الكلي،

(١) - عدنان أحمد مسلم: نفسه، ص:١١٦.

دون المجازفة بعقد مقارنة ما بين الشعوب القديمة والشعوب المتحضرة المعاصرة. أي: يدرس هذا الاتجاه الشعوب البدائية كما هي في الواقع، ولايهمها ما قبل أو مابعد، بل تدرس ظواهرها الثقافية والمجتمعية دراسة بنيوية ستاتيكية ثابتة وسانكرونية، بربط كل عنصر بوظيفته داخل النسق الكلي. بينما يعتمد الاتجاه التطوري على التاريخ في دراسة الظواهر الأنتروبولوجية، وربط الظواهر ببعدها الدياكروني القائم على الصيرورة الزمانية.

المطلب الخامس: المقاربة السوسيولوجية

تسعى المقاربة السوسيولوجية، مع إميل دوركايم (E.Durkheim) ، ومارسيل موس (M.Mauss) ، والمعهد السوسيولوجي (Le College de sociologie) الذي تبلور ما بين ١٩٣٧ و ١٩٣٩ م، إلى دراسة الظواهر المجتمعية دراسة تشييئية موضوعية وكمية. والهدف من ذلك هو تفسير هذه الظواهر تفسيرا وضعيا انطلاقا من أبعادها السياسية، والاقتصادية، والدينية، والثقافية، والقانونية.

هذا، ويرى إميل دوركايم أن مصدر المعرفة ليس العقل أوالحس، بل هو المجتمع، كما يبدو ذلك في كتابه (الأشكال الأولية للحياة الدينية [١]. ويتكون المجتمع من مجموعة من الأفراد تنسج بينهم علاقات متنوعة، ولكل فرد عقل خاص به. وكذلك للمجتمع عقل جمعي (Conscience collective) خاص به هو مصدر المعارف والأفكار السائدة. وبالتالي، فالعقل الجمعي هو مصدر المعارف التي يؤمن بها كل فرد من أفراد المجتمع. ويعني هذا أن المثقف أو المبدع يصدر عن هذا العقل الجمعي، ويستمد منه أفكاره وتصوراته وتأملاته الاجتماعية. ومن ثم، فالعقل الجمعي هو مجموعة من العقول

(١) - Durkheim, Emile : Les formes elementaires de la vie religieuse, Presses Universitaires de France, ٥ e edition, ٢٠٠٣

الفردية التي تنصهر في بوتقة معرفية واحدة، وتشترك في الخصائص المجتمعية نفسها. ويعني هذا أن الضمير الجمعي أو العقل الجمعي بمثابة لاشعور جماعي، وليس لاشعورا فرديا بالمفهوم الفرويدي.

وعليه، يرى دوركايم أن جميع المقولات المنطقية والمفاهيم العقلية والفكر هي نتاج المجتمع، ونتاج العقل الجمعي. أي: إن المجتمع الشامل هو الذي يتحكم في معرفة الإنسان وثقافته وإبداعه وابتكاره. ومن الصعب فصل المثقف عن الضمير المجتمعي الجمعي؛ لأنه يصدر، في أفكاره وتوجهاته، عن مفاهيم ومتخيلات مجتمعية جمعية، ألفتها الجماعة عبر ممارستها الطقوسية والدينية والاجتماعية.

أما مارسيل موس، فقد اهتم بالحدث المجتمعي في أبعاده الكلية: الاقتصادية، والثقافية، والدينية، والرمزية، والقانونية، دون التركيز على عامل دون آخر. بل ينظر إلى الكائن البشري نظرة واقعية محسوسة كلية وشاملة، في مختلف أبعادها المتنوعة: الفيزيولوجية، والاجتماعية، والنفسية، ضمن ما يسمى بالكائن الكلي أو الإنسان الشامل الذي سيكون منطلقا لدراسات بيير بورديو (Bourdieu) حول الهابيتوس. وأهم ما يتعلق بهذا المجال هو تركيزه على فكرة التبادل كما في كتابه (الهدية) [١] التي تقوم على ثلاث مراحل أساسية هي: وجوب تقديم الهدية، ووجوب استقبالها، ووجوب إرجاعها وإعادتها. ومن هنا، تقوم جميع المجتمعات، سواء البدائية منها أو المتحضرة، على فكرة

(١) - M. Mauss : Essai sur le don. Forme et raison de l'echange dans les societes archaiques (١٩٢٥) , Introduction de Florence Weber, Quadrige/Presses universitaires de France, ٢٠٠٧.

التبادل، كالتبادل على مستوى الزواج، والتبادل على المستوى الاقتصادي، والتبادل على المستوى السياسي، والتبادل على المستوى اللساني ...

المطلب السادس: المقاربة السيكولوجية

تبلورت هذه المقاربة مع سابير (Saper) ، وروث بينديكت (Ruth Benedict) ، ومارغريت دورا (Margaret Mead) ، ورالف لينتون (Ralph Linton) . وتعنى هذه المقاربة الأنتروبولوجية النفسية بدراسة العلاقة الموجودة بين الشخصية والثقافة. لذلك، تجمع هذه المقاربة بين علم نفس الشخصية، والأنتروبولوجيا الثقافية التي تهتم بدراسة الثقافة. ومن ثم، تركز هذه المقاربة على تأثير الثقافة في

الشخصية. أي: في حاملها. بمعنى أن الثقافة قد تكون عاملا محددا للشخصية السوية والمضطربة.
ومن ثم، فقد أظهرت الأبحاث الأنتروبولوجية ذات الطابع النفسي أن الفرد ليس مثقفا سلبيا، بل هو كائن ثقافي إيجابي ومبدع. بمعنى أن ليس هناك شخصيات منمطة ثقافيا بطريقة جماعية، بل هناك شخصيات مبدعة ومتفردة ومتميزة. وقد يحافظ الأفراد على ثقافتهم الأصلية، أو قد يجددون فيها، وقد يقاومون كل ثقافة دخيلة، أو يستقبلونها بطواعية واقتناع. لذا، لايمكن فهم المجتمعات الثقافية إلا بفهم نفسيات الشخصيات تجاه ثقافة مجتمعية ما. وفي هذا السياق، يقول عدنان أحمد مسلم: "أظهرت دراسات عملية التغير الثقافي أن الفرد في المجتمع ليس مجرد حامل سلبي لثقافة المجتمع، وإنما هو مخترع لعناصر ثقافية جديدة، ولديه القدرة على رفض أي تجديد في ثقافته أو قبوله، وهكذا وجد الباحثون أن الفهم الدقيق لظاهرة التكامل الثقافي، ولعمليات التغير الثقافي يتطلب الرجوع إلى حقائق علم النفس وبخاصة علم نفس الشخصية، فقد لاحظوا أن حالات"

رفض أو قبول تغيرات ثقافية في مجتمع ما ترتبط بصورة ما بمدى توافق عناصر المركب الثقافي الجديد مع الشخصية العامة لأعضاء المجتمع، هذا إضافة إلى ملاحظة أن شخصيات أعضاء المجتمع تتفق في سمات معينة، ويرجع ذلك الاتفاق إلى أن عيشتهم في ثقافة واحدة. "[١]"
وقد ميز رالف لينتون [٢] بين شكلين من الشخصيات: الشخصية الأساسية (Personnalite de base) والشخصية الوظيفية (Personnalite fonctionnelle) . فالشخصيات الأساسية هي تلك الشخصيات المنمطة اجتماعيا، والتي تتميز بمجموعة من العناصر التي يتوق المجتمع توفرها في الشخصية. بمعنى أن الشخصية الأساسية تشترك مع باقي شخصيات المجتمع في مجموعة من الصفات المشتركة والأحاسيس وأنماط السلوك، كآداب الأكل والجلوس والتحية، والاستجابات الموحدة تجاه مجموعة من المواقف، وطرائق اللباس. ويمكن التمثيل لذلك بمشجعي كرة القدم الذين يتحولون إلى شخصيات أساسية منمطة شعوريا وفكريا وسلوكيا، من خلال مواقفهم الموحدة تجاه الحدث الواحد (تشجيع الفريق) .

في حين، تعد الشخصيات الوظيفية تلك الشخصية المتعددة والمتنوعة التي ترتبط بوظيفة أو دور معين، مثل: شخصية وظيفية للأطباء، وشخصية وظيفية للمحامين، وشخصية وظيفية للمدرسين، إلخ ...

(١) - عدنان أحمد مسلم: نفسه، ص:١٦٨.

(٢) - Ralph Linton : Le Fondement culturel de la personnalite, Paris : Dunod, ١٩٧٧ ; traduction de The Cultural Background of Personality.

ويعني هذا أن المجتمع يقبل بنمط واحد من الشخصية، وهي الشخصية الأساسية التي تشترك مع باقي أفراد المجتمع في مجموعة من المواقف والاستجابات وردود الفعل. كما يقبل بأنماط متعددة من الشخصية، وهي الشخصية الوظيفية.

وهكذا، فالمجتمع يشكل شخصية أساسية جاهزة ومشتركة ومنمطة سلوكيا وفكريا. وفي الوقت نفسه، يبلور شخصية وظيفية متنوعة ومتعددة حسب أدوارها ووظائفها. ومن ثم، فالمجتمعات المنغلقة والمتخلفة تبلور لنا شخصيات أساسية منمطة، كما في المجتمعات الاشتراكية. بينما تسهم المجتمعات الرأسمالية في تكوين شخصيات وظيفية فاعلة ومبدعة ونامية ومتطورة.

المطلب السابع: المقاربة التأويلية

تستند المقاربة التأويلية إلى دراسة الظواهر الثقافية والمجتمعية في ضوء مقاربة قائمة على الفهم والتأويل، بعيدا عن التفسير السوسيولوجي والبنيوي والسيكولوجي. ومن ثم، تحاول هذه المقاربة دراسة الأنظمة أو الظواهر الثقافية دراسة سيميائية رمزية، بتمثل منهجية الفهم لدى ماكس فيبر (Max Weber) .

إذاً، يهدف الاتجاه التأويلي إلى دراسة الظواهر الأنتروبولوجية والثقافية بعيدا عن المقاربات التفسيرية، سواء أكانت سيكولوجية أم بنيوية أم سوسيولوجية وضعية. وقد اهتم هذا الاتجاه بتأويل الوقائع الثقافية، باستيحاء منهج ماكس فيبر الذي يركز على الفرد في تفاعله مع المجتمع، وتأويل الدلالات الرمزية التي تتضمنها الأفعال الإنسانية.

ومن أهم ممثلي هذا الاتجاه التأويلي المابعد الحداثي: كليفورد غيرتز (Clifford Geertz) صاحب عدة مؤلفات، مثل: (تأويل

الثقافات) [١]، و (بالي، وتأويل ثقافة) [٢]، و (ملاحظة الإسلام) [٣]، و (سوق صفرو، اقتصاد البزار) [٤] ...

وقد استعمل غيرتز، في دراساته وأبحاثه الإثنوغرافية، منهجية سيميائية رمزية وتأويلية في دراسة سوق صفرو بالأطلس المتوسط بالمغرب، ودراسة الظواهر الثقافية والمجتمعية بأندونيسيا. ومن ثم، فمنهجيته ميدانية قائمة على الملاحظة الوصفية، وتأويل الرموز، والبحث عن الدلالات الثاوية والعميقة والخلفية [٥].

المطلب الثامن: المقاربة الإيديولوجية

ظهرت المقاربة الإيديولوجية في دراسة الظواهر الثقافية والمعرفية مع كتابات كارل ماركس التي تثبت أن المثقفين أو المفكرين يعبرون عن أفكار الطبقة المهيمنة أو السائدة. وبالتالي، يمثلون البنية الفوقية وهي بنية إيديولوجية. ومن هنا، تتجاوز مادية كارل ماركس الجدلية الماديات السابقة كالمادية الأرسطية؛ والمادية الذرية مع ديمقريطيس؛

(١) - Clifford Geertz: The Interpretation of Cultures, Basic Books, New York, ١٩٧٣.

(٢) -Clifford Geertz: Bali : Interpretation d'une culture, Gallimard, ١٩٨٤.

(٣) - Clifford Geertz :Observer l'islam. Changements religieux au Maroc et en Indonesie, La Decouverte, ١٩٩٢.

(٤) -Clifford Geertz: Le souq de Sefrou. Sur l'economie de bazar, ٢٠٠٣.

(٥) -Clifford Geertz, «La description dense. Vers une theorie interpretative de la culture», Enquete, no ٦, ١٩٩٨, p. ٣.

والمادية التجريبية الإنجليزية مع جون لوك، ودافيد هيوم، واستيوارت ميل؛ والمادية الميكانيكية مع فيورباخ. وهنا، تعطى الأسبقية لما هو مادي واقتصادي على ماهو فكري وإيديولوجي. كما أن البنية التحتية ذات الطبيعة المادية هي التي تتحكم في البنية الفوقية القائمة على الفكر والدين والتصوف والأدب والفن والإيديولوجيا ... وفي هذا، يقول ماركس: "ويشكل مجموع علاقات الإنتاج هذه البنيان الاقتصادي

للمجتمع، أي يشكل الأساس الحقيقي الذي يقوم فوقه صرح علوي قانوني وسياسي وتتمشى معه أشكال اجتماعية. فأسلوب إنتاج الحياة المادية هو شرط العملية الاجتماعية والسياسية والعقلية للحياة بوجه عام. ليس وعي الناس بالذي يحدد وجودهم، ولكن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم. فعندما تصل قوى المجتمع الإنتاجية المادية إلى درجة معينة من تطورها تدخل في صراع مع أحوال الإنتاج القائمة أو بالتعبير القانوني مع أحوال الملكية التي كانت تعمل في ظلها حتى ذلك الوقت. وتتغير هذه الأحوال التي هي قيد على الأشكال التطورية من القوى الإنتاجية. وفي هذه اللحظة تحل حقبة من الثورة الاجتماعية. فتعديل القاعدة الاقتصادية يجر في أذياله قلبًا سريعًا بدرجة أكثر أو أقل، لكل الصرح العلوي الهائل. وعند دراسة الانقلابات التي من هذا النوع يجب دائمًا أن نفرق بين القلب المادي الذي يحدث في أحوال الإنتاج الاقتصادية والتي يمكن تقريرها بدقة علية، وبين الأشكال القانونية والسياسية والدينية والفنية والفلسفية أو بكلمة واحدة الأشكال الأيديولوجية التي يدرك الناس في ظلها هذا الصراع ويجاهدون في سبيل فضه" [١].

(١) - كارل ماركس: مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي، ترجمة: راشد البراوي، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى ١٩٦٩ م، ص:٣.

ويعني هذا أن ما هو اقتصادي ومادي ومجتمعي هو الذي يحدد فكر الناس ووعيهم ووجودهم. ولايعني هذا أن الفكر سلبي، لادور له في تغيير المجتمع أو التأثير فيه، بل يؤمن بفعاليته وخصوبته، وتأثيره في المجتمع المادي المحسوس. وفي هذا، يقول ماركس: "إن العيب الرئيس للمادية السابقة كلها، بما فيها مادية فيورباخ، هو أن الشيء، الواقع، العالم المحسوس، لاينظر إليه فيها إلا على شكل موضوع تأمل وليس كفاعلية إنسانية مشخصة، ليس كممارسة، وليس ذاتيا ... إن المذهب المادي القائل إن الناس هم نتاج الظروف والتربية، وأن الناس الذين تغيروا هم بالتالي نتاج ظروف أخرى وتربية تغيرت، أن هذا المذهب المادي ينسى أن الناس هم بالضبط الذين يغيرون الظروف، وأن المربي نفسه هو في حاجة إلى أن يربى [١]."

وعليه، فثمة علاقة جدلية أو علاقة تأثر وتأثير بين الفكر والواقع، بين الوعي والمادة، بين البنى الفوقية والبنى التحتية. ومن ثم، فالإيديولوجيا ليست سوى التعبير الفكري عن العلاقات السائدة في المجتمع، تلك

العلاقات التي تجعل طبقة ما هي الطبقة السائدة على الطبقات الأخرى. أي: الإيديولوجيا هي تلك الأفكار المشوهة التي تعكس العلاقات الجدلية السائدة في المجتمع الطبقي، ضمن ظرفية مادية وروحية ما. بمعنى أن الإيديولوجيا تزييف للحقائق وتبرير لها واستلاب للآخرين. وفي هذا، يقول أنجلز: "الإيديولوجيا هي نشاط فكري، يقوم به ذلك الوعي أنه مفكر واع، في حين إنه إنما يصدر عن وعي"
(١) - كارل ماركس وفردريك أنجلز: الإيديولوجية الألمانية، ترجمة: فؤاد أيوب، دار دمشق، سورية، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦ م، ص:٦٥١.

زائف مغلوط ذلك لأن القوى الحقيقية المحركة له، تبقى مجهولة لديه، وإلا لما كان نشاطه الفكري ذاك، إيديولوجيا [١] "."
إذاً، فالمثقف هو الذي ينتج الإيديولوجيا الكلية أو الجزئية، مادام ينتمي إلى بنية فوقية تتحكم في الفكر البشري برمته. وهذه الإيديولوجيا عبارة عن تبريرات واهية تصدر عن وعي مغلوط، وخاصة عندما تكون بعيدة عن واقعها المادي والاقتصادي والاجتماعي. إلا أن لينين يميز بين الإيديولوجيا البورجوازية التي تعادي أفكار الطبقة البروليتارية، وتخدع نفسها بالأوهام الزائفة؛ والإيديولوجيا الاشتراكية التي تقود الطبقة العمالية الثورية، وتقوم بتنويرها وتأطيرها وتوعيتها.
أما لوي ألتوسير (L.Althusser) [٢] ، فقد ميز بين أجهزة الدولة القمعية وأجهزة الدولة الإيديولوجية، فالأولى تتمثل في الحكومة، والإدارات، والجيش، والشرطة، والمحاكم، والسجون. بينما تتمثل الثانية في رجال الدين، والإعلام، والمدرسة، والثقافة، ونظام العائلة والزواج والأحوال الشخصية، والقانون، والسياسة الحزبية، والنقابات. فالأجهزة القمعية الأولى تنتمي كلها إلى القطاع العام. في حين، تنتمي الثانية

(١) - Lettre d'Engels a F. Mehring, ١٤ juillet ١٨٩٣, in : K. Marx & F. Engels, Etudes philosophiques, Paris, ١٩٦١

(٢) - ... Louis ALTHUSSER, "Ideologie et appareils ideologiques d'Etat. (Notes pour une recherche) ." Article originalement publie dans la revue La Pensee, no ١٥١, juin ١٩٧٠. In ouvrage de Louis

Althusser, POSITIONS (١٩٦٤ - ١٩٧٥) , pp. ٦٧ - ١٢٥. Paris : Les Editions sociales, ١٩٧٦, ١٧٢ pp.

إلى القطاع: الخاص المتعدد والمتنوع. أي: هناك تقابل بين العنف الذي تمارسه الدولة بأجهزتها ومؤسساتها العامة، والإيديولوجيا التي تمارسه مؤسسات القطاع الخاص. ويعني هذا كله أن الدولة أو الطبقة الحاكمة تحافظ على وجودها ومصالحها، وتسهر على توازن المجتمع وتماسكه واتساقه وانسجامه، بواسطة وسيلتين: العنف من جهة، والإيديولوجيا من جهة أخرى. ومن ثم، فالثقافة والإعلام والدين والسياسة والقانون والأسرة والنقابة في خدمة إيديولوجيا الدولة ومصالحها المباشرة وغير المباشرة. وبتعبير آخر، تمارس الدولة نوعين من العنف إزاء أفراد المجتمع، عنفا ماديا مباشرا قائما على القمع بواسطة أجهزة الدولة العامة، وعنفا رمزيا عبر مجموعة من القنوات الإيديولوجية والثقافية.
في حين، ميز أنطونيو غرامشي [١] بين البنى الفوقية وبين آليات اشتغالها. وإذا كان هناك من يفصل بينهما كما فعل ماركس وأنجلز وكارل مانهايم، فإن أنطونيو غرامشي يوحد بينهما ضمن ما يسمى بمفهوم الكتلة التاريخية التي تعني الجمع جدليا بين البنية الفوقية والبنية التحتية، في لحظة تاريخية محددة، وضمن بنية إيديولوجية معينة [٢].
وتتكون البنية الفوقية من مجتمعين: مجتمع مدني ومجتمع سياسي، وقد يكون بينهما تنافر وصراع جدلي،

(١) - Antonio GRAMSCI, Lettres de la prison (١٩٢٨ - ١٩٣٧) . Traduction francaise par Jean Noaro, ١٩٥٣.

(٢) - Antonio GRAMSCI, Gramsci dans le texte. De l'avant aux derniers ecrits de prison (١٩١٦ - ١٩٣٥) . Recueil de textes realise sous la direction de Francois Ricci en collaboration avec Jean Bramant. Textes traduits de l'Italien par Jean Bramant, Gilbert Moget, Armand Monjo et Francois Ricci. Paris : Editions sociales, ١٩٧٥, ٧٩٨ pages.

أو تعايش وتضامن وتعاون. أما المثقف فهو الذي يحقق الوحدة العضوية بين البنيتين ضمن الكتلة التاريخية الموحدة. ويكون وسيطا جدليا بينهما.

ومن ثم، يتحدث غرامشي عن المثقف العضوي الذي يسهم في تغيير الواقع وتثويره طبقيا ومجتمعيا [١].
أما السوسيولوجي الألماني كارل مانهايم (Karl Mannheim) ، فيميز بين الإيديولوجيا الجزئية والإيديولوجيا الكلية، في كتابه (الإيديولوجيا واليوتوبيا) [٢] الذي نشر سنة ١٩٢٩ م، فالإيديولوجيا الأولى ترتبط بالأفكار التي يعتنقها الشخص، والتي يرى فيها خصومه غطاء شعوريا أو لاشعوريا لحقيقة الموقف الذي يصدر عنه. بمعنى أن الشخص قد لايعبر صراحة عن مصالحه بشكل مباشر، بل يغلفها بتبريرات نظرية ليصرف أنظار الآخرين عنها، ويمكن تسمية هذا بالإيديولوجيا الطبقية.
أما الإيديولوجيا الثانية، فهي مجموع الأفكار التي تعتنقها فئة اجتماعية ما، سواء أكانت طبقة أم غير طبقة، فتحاول أن تقدم تبريرات لموقفها داخل المجتمع، ويمكن تقريب هذه الإيديولوجيا من الثقافة بمفهومها العام. لكن الأفراد، في الحقيقة، يستمدون إيديولوجيتهم من المجتمع ضمن ما يسمى عند دوركايم بالضمير الجمعي، فلايمكن فصله

(١) - Antonio GRAMSCI, Textes (١٩١٧ - ١٩٣٤) . Edition realisee par Andre Tosel. Une traduction de Jean Bramon, Gilbert Moget, Armand Monjo, Francois Ricci et Andre Tosel. Paris : Editions sociales, ١٩٨٣, ٣٨٨ pages. Introduction et choix des textes par Andre Tosel.

(٢) - Karl Mannheim (١٩٢٩) , Ideologie et utopie (Une introduction a la sociologie de la connaissance. Paris: Librairie Marcel Riviere et Cie, ١٩٥٦, ٢٣٣ pages.

عن أفكار الأفراد الآخرين الذين ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية نفسها التي ينتمي إليها ذلك الفرد.
وإذا كان كارل ماركس يفسر الإنتاج الذهني والثقافي وفق الواقع المادي الجدلي، على أساس أن الإيديولوجيا هي نتاج الطبقة المسيطرة على وسائل الإنتاج، فإن غي روشي (Guy Rocher) [١] يعتبر الإيديولوجيا عنصرا من عناصر الثقافة، وليس الثقافة كلها. وبالتالي، لا ترتبط بالمجتمع كله (إيديولوجيا كلية) ، بل بجزء من المجتمع (إيديولوجيا جزئية) .

أما السوسيولوجي الفرنسي رايمون آرون (Raymond Aron) ، فيقول بنهاية الإيديولوجيا في سنوات الخمسين من القرن الماضي، في كتابه (أفيون المثقفين) [٢] على غرار الأمريكيين: دانييل بيل (Daniel Bell) الذي قال بنهاية الإيديولوجيات القديمة [٣]، والأمريكي فرنسيس فوكويوما (Francis Fukuyama) الذي قال بنهاية التاريخ والإنسان القديم [٤] ...

(١) - Guy Rocher : Introduction a la sociologie generale, Montreal (Quebec) , Canada, Editions H.M.H., ١٩٦٨ - ١٩٦٩.

(٢) - Raymond Aron : L'Opium des intellectuels, Paris, Calmann-Levy, ١٩٥٥.

(٣) - Daniel Bell :The End of Ideology: On the Exhaustion of Political Ideas in the ١٩٥٠ s (١٩٦٠)

(٤) - Francis Fukuyama, La Fin de l'histoire et le Dernier Homme, Paris, Flammarion, coll. Histoire, ١٩٩٢, ٤٥٢ p.

محددات الثقافة:

من المعروف أن الثقافة خاصية إنسانية واجتماعية مكتسبة بالتعلم والدربة والمران والصقل، قائمة على معارف خلفية، وأنساق تناصية متعددة، وحقول مركزية وفرعية تتصارع فيما بينها من أجل تحقيق الهيمنة. علاوة على ذلك، فالثقافة نسق كلي أو نظام سيميائي رمزي ومنفتح، تتداخل فيه مجموعة من الحقول والأنساق المركزية والفرعية، ولايمكن للمثقف الخوض في أي نسق معرفي أو ثقافي إلا بتمثل الهابيتوس الثقافي، أو امتلاك مجموعة من الاستعدادات والتصورات الفطرية والمكتسبة لفهم لعبة الأنساق الثقافية المتصارعة والمتنافسة فيما بينها. ومن هنا، فالثقافة هي نسق ونظام وحقل ثقافي كلي، يتفرع إلى مجموعة من الحقول والأنساق الفرعية الأخرى.

وتتميز الثقافة بالنمو والتغير والتحول والانتشار والتطور، على أساس أن المجتمعات البشرية خاضعة للتطور المستمر، والنمو الديناميكي الفاعل. لذلك، فالثقافة بدورها تتغير مع تغير المجتمع. وهنا، يمكن أن تسهم الثقافة في تغيير المجتمع جزئيا أوكليا، أو يقوم المجتمع أيضا

بتغيير الثقافة، أو تتغير الثقافة والمجتمع في الوقت نفسه. ولا ننسى أن الثقافة تنتشر من مكان إلى آخر حسب النظرية الأنتروبولوجية الانتشارية التي يمثلها كل من: فرانز بواس (Franz Boas) ووليام ريفير (William H. R. Rivers) . أي: لاتمكث الثقافة في مكان واحد، بل تنتقل من مكان إلى آخر. فقد انتقلت الحضارة من العراق إلى مصر وفارس واليونان وشبه الجزيرة العربية، لتنتقل فيما بعد إلى باقي الدول والمناطق الأخرى. ويعني هذا أن الثقافة تنأى عن الثبات والمحافظة والتقوقع والانعزالية ... وقد يكون الانتشار الثقافي بالتقليد والمحاكاة والإضافة والتعديل والتطوير والتجديد والإبداع والابتكار.

وعليه، فالثقافة عبارة عن أفكار وأعمال وأشياء. بمعنى أنها لاتقتصر على المنتج الفكري والفلسفي والعلمي والمعرفي والأدبي والفني والديني فحسب، بل تتعدى ذلك إلى ممارسات ثقافية (الرقص مثلا) ، أو أشياء مصنوعة فنيا وجماليا وتقنيا وعمرانيا. وتخضع الثقافة لثنائية المضمون والشكل، فقد يرجح المضمون على حساب الشكل، أو يرجح الشكل على حساب المضمون، أو ينتظمان في وحدة جدلية متكاملة. وقد تكون الثقافة مثالية أو مادية أو مطلقة أو نسبية. وتتسم الثقافة أيضا بخاصيتها الانتقائية والتراكمية وانتقالها من جيل إلى آخر، بعد أن تحقق تراكما كميا وكيفيا. وتخضع الثقافة كذلك لمجموعة من الخاصيات الجوهرية، مثل: التكامل، والتباين، والتداخل، والتثاقف، والتعدد، والتنوع، والتبادل، والتعاون، والصراع، والمنافسة، والتضامن، والتطابق، والإكراه، والإلزام ... ويمكن للثقافة أن تنتعش حضاريا إن تطورا، وإن هيمنة، وإن ارتقاء. وفي الوقت نفسه، يمكن أن تخضع، بعد تقاعس أبنائها وحامليها، لثقافة أخرى وفق المقولة الخلدونية: المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب، ويمكن أن تندثر الثقافة وتضمحل بشكل تدريجي أو بشكل فوري [١].

(١) - راجع: عبد الغني عماد: نفسه، صص:١١٥ - ١٣١.

التغير الثقافي :

من المعروف أن المجتمع يخضع للتغير والتحول بشكل دائم ومستمر، كما يحدث لمؤسساته ومنظماته الصغرى والكبرى (الأسرة، والمدرسة، والجامعة، والحزب، والنقابة، والحكومة ...) .لذا، يرفض علماء الاجتماع الحديث عن بنية المجتمع (Structure) ؛ لأن ذلك يحيل على الثبات

والمحايثة والاستقرار. في حين، يتسم المجتمع بالتحول والتطور والتغير الدائم. ومن ثم، فقد اهتم علم الاجتماع بمفهوم التحول أو التغير الاجتماعي منذ انطلاقه مع رواده الأوائل (ابن خلدون، وسان سيمون، وأوجست كونت، وإميل دوركايم، وماكس فيبر، وكارل ماركس ...)
وغالبا، ما يكون التغير التقني سباقا في عملية التحول والتغير المجتمعي؛ إذ تنتج عنه مجموعة من التحولات المادية والمعنوية والثقافية. ويعني هذا أن التحول التكنولوجي هو المدخل الرئيس إلى باقي التحولات والتغيرات المجتمعية الأخرى. ويتحقق هذا التحول بالتصحيح والإصلاح والمعالجة والتعديل والتصويب والإضافة والتطوير والخلق والتجاوز والابتكار والإبداع. وقد تكون هذه التحولات كمية ومادية من جهة، وكيفية ومعنوية من جهة أخرى.
وقد يتحقق التحول أيضا بإضافة عناصر جديدة إلى عناصر قديمة، مع المحافظة على القديم، إلى أن يصبح ذلك حاجزا أو عائقا معرقلا لعجلة التنمية والتطور والتقدم. ومن ثم، يتخذ التغير أشكالا عدة على مستوى الاتجاه، كالانطلاق من البسيط نحو المعقد، أو السير بشكل تصاعدي مستقيم، أو السير بطريقة جدلية ماركسية نحو الأمام، أو بطريقة تدرجية تتخللها الثغرات والتعثرات، أو بطريقة تجمع بين الكمي والكيفي أو المادي

والمعنوي، أو بطريقة خاضعة لمنطق الربح والخسران. وقد ينتج عن التغيرات الخاضعة للتخطيط تغيرات عشوائية وتلقائية غير مخطط لها بشكل دقيق.
ويلاحظ أن أهم تغير مجتمعي عرفته الإنسانية، منذ تاريخها إلى يومنا هذا، ذلك التغير المرتبط بالثورة الزراعية الذي نتج عنها ظهور المدن الكبرى والصغرى، وما زال هذا التحول جاريا إلى يومنا هذا. علاوة على التغير الإعلامي والرقمي الذي حول ثقافة المجتمع إلى ثقافة بصرية وسيميائية بامتياز. لذا، يصعب الحديث عن التغير في غياب فعل الحركية والتحول والديناميكية.
هذا، وقد قلنا - سابقا- إن التغير المجتمعي له آثار جلية وواضحة في باقي البنيات والمؤسسات الأخرى، وخاصة مؤسسة الثقافة. ومن ثم، يتأثر الفعل الثقافي بباقي التغيرات التقنية والسياسية والمجتمعية

والاقتصادية والدينية والطبيعية والحضارية. وبالتالي، يمكن الحديث عن مجموعة من عوامل التغير الثقافي التي يمكن حصرها فيما يلي:
(العوامل الطبيعية والمناخية: تعد العوامل الطبيعية والمناخية من أهم المؤثرات التي تتحكم في ثقافات الشعوب. لأن المثقف يتأثر ببيئته سلبا أو إيجابا. وقد تسهم البيئة، بكل خصائصها الطبيعية والمناخية، أن توجه المثقف توجيهات مختلفة بحسب الظروف التي يعيشها ذلك المثقف. ومن ثم، فالموقع الجغرافي والمناخ الطبيعي يؤثر في نفسيات وذهنيات المفكرين والمثقفين والمبدعين بشكل من الأشكال، فثقافة أبناء الجبال تختلف عن ثقافة أبناء السواحل والسهول والجزر والصحارى والمناطق الجليدية ...
(العوامل السكانية والبشرية: تقوم العوامل السكانية والبشرية بدور هام في تغيير تركيبة المجتمع والثقافة على حد سواء. ويتجلى ذلك واضحا في عدد الأفراد، وعدد

الزيجات، ونسبة المواليد والوفيات، وكيفية توزيع السكان في الأرض والقارات، وطبيعتهم من حيث الجنس والسن والعرق، ونسبة الكثافة السكانية. وقد أثبت دوركايم أن الكثافة السكانية أو المادية قد ساهمت في تقسيم العمل. وفي هذا الصدد، يقول الباحث: "ولقد بينا في موضع آخر أن كل زيادة في حجم المجتمع وفي كثافته الديناميكية تؤدي إلى تشعب الحياة الاجتماعية، وذلك لأنها توسع الأفق الذي يستطيع الفرد أن يحيط به بفكره أو يملأه بنشاطه العملي ويفضي كلا هذين العاملين إلى تغيير الشروط الأسساية للحياة الاجتماعية تغييرا كاملا." [١]
ويعني هذا كله أن العوامل السكانية والبشرية قد تؤثر في المثقف سلبا أو إيجابا، فتشكل رؤيته إلى العالم حسب الوضعية التي يوجد عليها ذلك المثقف.
(العوامل الدينية: من المعلوم أن الدين، باعتباره منظومة من العقائد والشعائر والقيم والعادات والأعراف والأعمال والطقوس، يسهم في تطوير الفعل الثقافي ضمن حقل أو مجال معين. وبالتالي، يمارس الدين تأثيره الواضح والجلي في كثير من المثقفين؛ لأنه يمد الأدب والفن وباقي الحقول والأنساق الثقافية الأخرى بمجموعة من المضامين والأشكال والمفاهيم والألفاظ اللغوية والرموز بغية تعضيدها أو تقويتها أوتسليحها بالحقائق اليقينية أو الصادقة حول الله، والكون، والإنسان، وخلق العالم،

ومصير الإنسان. وقد يتحول الدين إلى إيديولوجيا - حسب لوي ألتوسير- عند بعض المفكرين ورجال الدين والمثقفين والكتاب والفنانين الذين يتقربون من السلطة، أو يكون أفيونا
(١) - إميل دوركايم: قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة: محمود قاسم والسيد محمد بدوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، طبعة ١٩٨٨ م، ص:٢٣٢.

للاستغلال والاستلاب والتخدير كما يرى ذلك كارل ماركس. ويعني هذا أن الثقافة تتأثر بالدين سلبا أو إيجابا.
(العوامل الإيديولوجية والثقافية: تتأثر الثقافة بالإيديولوجيا الجزئية أو الكلية، أو بالإيديولوجيا الطبقية، أو بالإيديولوجيا الثقافية للمجتمع برمته. ومن ثم، يتشرب المثقف، في كتاباته ومواقفه السياسية والاجتماعية، مجموعة من الإيديولوجيات الثورية أو العلمية، ويعبر عنها بشكل مباشر أو غير مباشر، بل يقتنع بها على الرغم من وهمها وزيفها وسرابها الموضوعي. ويتجلى هذا واضحا عند المثقفين الماركسيين أوالمثقفين العضويين بمفهوم أنطونيو غرامشي، والمثقفين الدينيين والحزبيين والنقابيين الذين يعتقون مجموعة من الأفكار يعتقدون أنها أفكار مجتمعية صادقة وصحيحة. بينما هي أفكار تصدر عن قناعات مبررة إيديولوجيا ومصلحيا.
وعلى الرغم من ذلك، فالإيديولوجيا هي التي تزود المثقف بالمضامين والحمولات والرؤى والتصورات والقناعات والأطروحات الفكرية التي يدافع عنها في كتاباته بغية خدمة مصالحه الشخصية من جهة، أو خدمة مصالح طبقته الاجتماعية وتطلعاتها وطموحاتها من جهة أخرى.
(العوامل التقنية والرقمية: تقوم العوامل التقنية والرقمية والآلية بدور هام في تغيير الثقافة، فقد ساهمت المخترعات والأدوات التكنولوجية الحديثة في تغيير المجتمعات جذريا، وتطوير ثقافات أفرادها وجماعاتها، بفضل استعمال تلك المخترعات الجديدة في استغلال الطبيعة واستثمارها والتكيف معها. وقد انفتحت الثقافة - اليوم- على الثقافة الرقمية والحاسوبية، فتحولت الثقافة من ثقافة ورقية أو شفوية إلى ثقافة رقمية افتراضية

متعددة الأبعاد والأكوان والحقول والأنساق. وقد أضحت هذه الثقافة الرقمية تتميز بالسرعة في تبادل المعلومات والمعارف، ونقل المحتويات

والمضامين والأشكال من بيئة جغرافية إلى بيئة أخرى، مهما بعدت المسافة أو قربت.
(العوامل النفسية: لاننسى مدى أهمية العوامل النفسية في تطوير المجتمعات، وتغيير الأنساق الثقافية من مكان إلى آخر، ومن زمان إلى آخر. ويعني هذا أن نفسية المبدع أو المثقف قد تدفعه شعوريا أو لاشعوريا أو سلوكيا أو ذهنيا إلى استعمال أنواع من الكتابة والأشكال الثقافية، أو الميل إلى إيديولوجيا معينة، أو الانطلاق من فلسفة معينة. ومن ثم، فالثقافة قد تسهم فيها نفسيات متوازنة، أو نفسيات معقدة، أو نفسيات منعزلة وانطوائية، أو نفسيات عابثة، أو نفسيات مضطربة وغير سوية.
(العوامل الاقتصادية: ونعني بها مختلف العوامل المادية والآلية والإنتاجية التي تتحكم في البنى الفوقية والإيديولوجية، ولاسيما الثقافية منها. بمعنى أن العوامل الاقتصادية- حسب الكتابات الماركسية- هي التي تحرك الفعل الثقافي، وتتحكم فيه إيجابا أو سلبا. ومن ثم، لايمكن فصل المثقف ودوره عن المحيط السوسيو- اقتصادي الذي يحرك بنية المجتمع، ومختلف طبقاته المتفاوتة، بما فيها النخبة المثقفة. وأكثر من ذلك، يخضع الإنتاج الثقافي للتقلبات الاقتصادية كسادا وتضخما، كما يبدو ذلك جليا على مستوى الكتابة تنظيرا وممارسة. ومن ثم، يعبر المثقفون عن إيديولوجيا الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها، ويدافعون عن مصالحهم وآمالهم وطموحاتهم، وخاصة أنهم يدافعون عن تطلعات الطبقة البورجوازية الصغرى أو الوسطى.

(عامل الحداثة: حينما نتأمل مفهوم الحداثة (la modernite) ، فإنه يتبادر إلى أذهاننا مجموعة من المفاهيم التصورية، مثل: الغرب، والعلمانية، والحضارة، والعلم، والثقافة، والتقنية ... ويعني هذا أن الحداثة هي لحظة تاريخية متنورة عاشتها أوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، من خلال الثورة على رجال الدين والإقطاع والجهل والخرافة والشعوذة، باستلهام الحضارتين اليونانية والرومانية، والاستهداء بالعقل والمنطق، واستثمار الطبيعة، والأخذ بالفلسفة التجريبية، والدفاع عن الإنسان وحرياته الخاصة والعامة، والدعوة إلى حقوق الإنسان الطبيعية والمكتسبة، وخلق المجتمعات المدنية، وتطوير الاقتصاد في ضوء الليبرالية الفردية، والانفتاح على

الشعوب الأخرى، وتأسيس المختبرات العلمية، وتشجيع الاكتشافات الجغرافية والملاحة البحرية بحثا عن المواد الأولية ومصادر الثروة.
وعليه، تحيل كلمة الحداثة على الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والدولة الليبرالية، والملكية الفردية، وصعود البورجوازية، واستخدام العقل والعلم في فهم الطبيعة وتفسيرها، واستعمال المنهج العلمي في دراسة الوثائق، وتمثل الموضوعية في التعامل مع الظواهر المرصودة، وفصل الدين عن الدولة. وقد ترتب على هذه الحداثة أن تطورت أوروبا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، وأصبحت نموذجا للتمدن والرقي الحضاري والتطور التقني والصناعي والمعرفة الثقافية، ومهد الفلسفات النظرية والعملية، وأكثر من هذا، فقد سيطرت على العالم بفضل علمها وتقنيتها وقوتها العسكرية والمادية.

هذا، ويعرف محمد سبيلا مفهوم الحداثة بقوله: "فهو يعني في مقام أول تحقيبا زمنيا. أي إشارة إلى العصور الحديثة التالية للعصور الوسطى وللعصور القديمة حسب التصنيف الغربي الذي اتخذ اليوم طابعا كونيا."
وهو - في مقام ثان- يعني نواة فكرية أو رؤية للعالم تبلورت بعد انطلاق حركية الحداثة في أوربا الغربية (إيطاليا- فرنسا-ألمانيا-إنجلترا) منذ القرن الخامس عشر، والتي يؤرخ لها بالأحداث المفصلية في تاريخ أوربا: النهضة الفنية والأدبية والعلمية بإيطاليا التي كانت نواة النهضة الأوربية التي تطورت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي، والتي بلورت النزعة الإنسية (L'humanisme) الأوربية في مرحلة أولى، وبلغت ذروتها في حركة الأنوار (Les lumieres) في القرن الثامن عشر الميلادي كحركة فكرية قوامها العقلانية والتجريبية والإيمان بالحرية وبقانون التقدم. والأحداث المفصلية الكبرى للحداثة الأوربية بجانب حركة النهضة الفنية والأدبية والعلمية هي الإصلاح الديني الذي دشنته الحركة البروتستانتية في القرن السادس عشر في أوربا. الجوهر التحديثي للإصلاح الديني الذي نادى به مارتن لوثر، والذي انتشر أولا في البلدان الجرمانية والسكندينافية التي كانت قد تشكلت فيها كنائس دولة (Eglise d'Etat) قوية، هو تحويل الإيمان الديني إلى تجربة إيمان شخصي ذاتي تأملي (foi reflexire) تتحول فيها التجربة الدينية من سلطة خارجية آمرة إلى تجربة شخصية يحضر فيها بقوة جانب حرية

الاختيار والقرار الذاتي مقابل سلطة التبشير وسلطة التقاليد والتراث الديني المؤسسي حيث لم يعد القربان (L'hostie) إلا عجينا، والرفات (Lesreliques) إلا عظاما. أما الحدث المفصلي النوعي الآخر فهو الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩. ويتمثل جوهرها في قلب طبيعة السلطة السياسية من الاعتماد على الحق

الإلهي إلى الارتكاز على الحق الإنساني، كما يتمثل في الإعلان عن حقوق الإنسان والمواطن سنة ١٧٨٩ وإقرار قانون نابليون. وهي إجراءات فرضت مبدأ الذاتية أو الفردية الإنسانية كأساس ومقياس ومرجع، وفرضت مبدأ حرية الاختيار الفردي كأساس للنظام السياسي مقابل الحقوق التاريخية والتراثية "[١]."
إذاً، ترتبط الحداثة، باعتبارها حقبة زمنية، بعصر النهضة الأوروبية، أو بعصر الإنسان، أو بعصر الأنوار، وكان الغرض منها هو تحديث أوروبا وعصرنتها ماديا ومعنويا على جميع الأصعدة والمستويات. وقد استمرت هذه الحداثة حتى سنوات الستين من القرن العشرين، لتنتقل أوروبا إلى ما بعد الحداثة التي استهدفت تقويض الميتافيزيقا الغربية، وتحطيم المقولات المركزية التي هيمنت قديما وحديثا على الفكر الغربي، كاللغة، والهوية، والأصل، والصوت، والعقل ... وقد استخدمت في ذلك آليات التشتيت والتشكيك والاختلاف والتغريب. كما تقترن مابعد الحداثة بفلسفة الفوضى والعدمية والتفكيك واللامعنى واللانظام. وتتميز نظريات ما بعد الحداثة عن الحداثة السابقة بقوة التحرر من قيود التمركز، والانفكاك عن اللوغوس والتقليد وماهو متعارف عليه، وممارسة كتابة الاختلاف والهدم والتشريح، والانفتاح على الغير عبر الحوار والتفاعل والتناص، ومحاربة لغة البنية والانغلاق والانطواء، مع فضح المؤسسات الغربية المهيمنة، وتعرية الإيديولوجيا البيضاء، والاهتمام بالمدنس والهامش والغريب والمتخيل والمختلف، والعناية بالعرق، واللون، والجنس، والأنوثة، وخطاب مابعد الاستعمار ....

(١) - محمد سبيلا: (الإسلام وتحديات الحداثة) ، موقع محمد سبيلا، http://www.mohamed-sabila.com/maqal ١٢.html

وعلى العموم، تطلق الحداثة الغربية على مجموعة من المفاهيم، مثل: التنوير، والدولة، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، والعقل، والمنطق، والسببية، والتقنية، والليبرالية، والعلمانية، والفردية، والنظام، والوحدة،

والانسجام، والإنتاج، والهيمنة، واللوغوس، والمركزية الغربية، وهيمنة الرجل الأبيض على باقي الأعراق والأجناس الأخرى، والسيطرة على الطبيعة والذات والمجتمع على حد سواء ...

وتستند الحداثة - كما في الغرب- إلى مجموعة من المقومات الأساسية التي تتمثل في الاستفادة من الإرث اليوناني والروماني، والثورة على الإقطاع ورجال الدين، والأخذ بالعلمانية، والاحتكام إلى الدولة والقانون والقواعد، والاسترشاد بالعقل والمنطق والعلم والحتمية في فهم الطبيعة واستكشافها، وتمثل الاقتصاد الليبرالي الفردي، واحترام الملكية الخاصة، وتقديس العلم، وإحلال الإنسان مكانة كبرى في المنظومة الفكرية، والاهتمام بالمنهج العلمي، والميل نحو التفكير التجريبي، واستعمال التقنية في مجال التعدين والتصنيع والتحديث والتفكير، والتشبث بالعمل والاكتشاف وروح المغامرة، واحترام حقوق الإنسان، والاهتمام بالصناعة وتطوير الثقافة.

هذا، ويرى المفكر الإيراني داريوش شيغان أن مقومات الحداثة تتمثل في "الانتقال التدريجي على مستوى المعرفة من النظرة التأملية إلى التفكير المنهجي التقني والتجريبي، وعلى مستوى الطبيعة من الأشكال الجوهرية إلى المفاهيم الميكانيكية والرياضية التكميمية، وعلى مستوى الإنسان من الماهيات القبلية الثابتة إلى الدوافع والغرائز الأولية؛ وعلى مستوى التاريخ من النظرة الغائية الخلاصية إلى النظرة التاريخانية." [١]

(١) - داريوش شيغان: أوهام الهوية، الترجمة العربية، دار الساقي لندن ١٩٩٣، ص:٤١ - ٤٧.

هذا، وترتبط الحداثة، في عمومها، بالتقدم والازدهار والتحديث والتغيير، وتحقيق التنمية الشاملة المستمرة التي تعود على الإنسان بالنفع العام ماديا ومعنويا.

ويتضح، مما سبق ذكره، أن المثقف المعاصر قد استفاد من آليات الحداثة وتصوراتها الفكرية والفلسفية والمنهجية والمادية تحديثا ورؤية وممارسة وتفكيرا.

(عامل مابعد بعد الحداثة: تمتد فترة مابعد الحداثة (Post modernism) من سنة ١٩٧٠ م إلى سنة ١٩٩٠ م. ويقصد بها النظريات والتيارات والمدارس الفلسفية والفكرية والأدبية والنقدية

والفنية التي ظهرت ما بعد الحداثة البنيوية والسيميائية واللسانية. وقد جاءت مابعد الحداثة لتقويض الميتافيزيقا الغربية، وتحطيم المقولات المركزية التي هيمنت قديما وحديثا على الفكر الغربي، كاللغة، والهوية، والأصل، والصوت، والعقل ... وقد استخدمت في ذلك آليات التشتيت والتشكيك والاختلاف والتغريب. وتقترن مابعد الحداثة بفلسفة الفوضى والعدمية والتفكيك واللامعنى واللانظام. وتتميز نظريات ما بعد الحداثة عن الحداثة السابقة بقوة التحرر من قيود التمركز، والانفكاك عن اللوغوس والتقليد وماهو متعارف عليه، وممارسة كتابة الاختلاف والهدم والتشريح، والانفتاح على الغير عبر الحوار والتفاعل والتناص، ومحاربة لغة البنية والانغلاق والانطواء، مع فضح المؤسسات الغربية المهيمنة، وتعرية الإيديولوجيا البيضاء، والاهتمام بالمدنس والهامش والغريب والمتخيل والمختلف، والعناية بالعرق، واللون، والجنس، والأنوثة، وخطاب مابعد الاستعمار ....

ويعني هذا أن ما بعد الحداثة من المصطلحات الأكثر التباسا وإثارة في فترة مابعد الحداثة، حيث اختلف حوله نقاد ودارسو (مابعد الحداثة) ؛ نظرا لتعدد مفاهيمه ومدلولاته من

ناقد إلى آخر. بل نجد أن المعاني التي قدمت لمفهوم (مابعد الحداثة) متناقضة فيما بينها ومختلفة ومتداخلة، حتى أثير حول استخدام مفهوم مصطلح (مابعد الحداثة) نقاش مستفيض، إذ يعتبر من أهم المصطلحات التي "شاعت وسادت منذ الخمسينيات الميلادية، ولم يهتد أحد بعد إلى تحديد مصدره: فهناك من يعيد المفردة إلى المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي عام ١٩٥٤ م، وهناك من يربطها بالشاعر والناقد الأمريكي تشارلس أولسون في الخمسينيات الميلادية، وهناك من يحيلها إلى ناقد الثقافة ليزلي فيدلر، ويحدد زمانها بعام ١٩٦٥ م. على أن البحث عن أصول المفردة أفضى إلى اكتشاف استخدامها قبل هذه التواريخ بكثير، كما في استخدام جون واتكنز تشابمان لمصطلح" الرسم مابعد الحداثي "في عقد ١٨٧٠ م، وظهور مصطلح مابعد الحداثة عند رودولف بانفتز في عام ١٩١٧ م." [١]

وقد تبين واضحا أن أفكار (مابعد الحداثة) مختلفة نسبيا عن مفاهيم الحداثة السابقة. وهناك من يرى أن أفكار (مابعد الحداثة) مختلفة جذريا عن أفكار الحداثة. ويعتقد "بعضهم أنه من الممكن اعتبار الكتاب

والفنانين في مرحلة (ماقبل الحداثة) على أنهم مابعد الحداثيون، بالرغم من أن المفهوم لم يكن مصاغا آنذاك. وهذا أقرب إلى الجدل الذي يرى نظريات فرويد عن اللاوعي أنها موجودة مسبقا في الفكر الرومانسي الألماني. وقد ناقش الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس (Habermas) أن مشروع الحداثة لم ينته أبدا بعد، حيث يواصل هذا المشروع سعيه لتحقيق أهدافه (وبهذا، يقصد هابرماس قيم تنوير العقل والعدالة الاجتماعية) . ويعد مصطلح" مابعد الحداثة ""

(١) - سعد البازعي وميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة ٢٠٠٠ م، ص:١٣٨.

(والكلمات المشابهة له) أيضا في نظر الكثيرين أنه يشير، بصفة عامة، إلى دور وسائل الإعلام في المجتمعات الرأسمالية في أواخر القرن العشرين. وأيا كان استخدامه المفضل، فمن الواضح أن نظرية تفسير التطورات الاجتماعية والثقافية عن طريق السرديات الكبرى لم تعد ممكنة أو مقبولة، وأنه لم يعد ممكنا للأفكار أن تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا مع الواقع التاريخي. فكل شيء هو النص والصورة. وبالنسبة للكثيرين، يحاول العالم الذي يتم تصويره في فيلم (الماتريكس) ، حيث نجد الحياة البشرية تقلد الآلات التي تسيطر عليها، إقناع المشاهد بعالم مابعد الحداثة، لإقناعه بكابوس من عالم الخيال العلمي، فهذا العالم هو بمنزلة استعارة أو مجاز عن حالة الإنسان الحالي. "[١]"

وهناك من الباحثين والدارسين من يربط (مابعد الحداثة) بفلسفة التفكيك والتقويض، وتحطيم المقولات المركزية الكبرى التي هيمنت على الثقافة الغربية من أفلاطون إلى يومنا هذا. وفي هذا الصدد، يقول دافيد كارتر (David karter) ، في كتابه (النظرية الأدبية) ،: "وتعبر هذه المواقف من" مابعد الحداثة "عن موقف متشكك بشكل جوهري لجميع المعارف البشرية، وقد أثرت هذه المواقف على العديد من التخصصات الأكاديمية وميادين النشاط الإنساني (من علم الاجتماع إلى القانون والدراسات الثقافية، من بين الميادين الأخرى) . وبالنسبة للكثيرين تعد" مابعد الحداثة "عدمية على نحو خطير، فهي تقوض أي معنى للنظام والسيطرة المركزية للتجربة. فلا العالم ولا الذات لهما وحدة متماسكة" [٢].

(١) - ديفيد كارتر: النظرية الأدبية، ترجمة: د. باسل المسالمه، دار التكوين، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٠ م، ص:١٣٠.
(٢) - ديفيد كارتر: النظرية الأدبية، ص:١٣١.

ومن ثم، فقد اعتمدت فلسفة (مابعد الحداثة) على التشكيك والتقويض والعدمية. كما اعتمدت على التناص واللانظام واللاانسجام، وإعادة النظر في الكثير من المسلمات والمقولات المركزية التي تعارف عليها الفكر الغربي قديما وحديثا. ومن ثم، تزعزع مابعد الحداثة- حسب دافيد كارتر-: "جميع المفاهيم التقليدية المتعلقة باللغة والهوية، إذ نسمع كثيرا من الطلاب الأجانب الذين يدرسون الأدب الإنكليزي ينعتون أي شيء لايفهمونه أو يعبرون عنه بمابعد حداثي. وكثيرا ماتكشف النصوص الأدبية في" مابعد الحداثة "عن غياب الانغلاق، وتركز تحليلاتها على ذلك. وتهتم كل من النصوص والانتقادات بعدم وضوح الهوية، وماهو معروف باسم" التناص ": هو إعادة صياغة الأعمال المبكرة أو الترابط بين النصوص الأدبية." [١]
هذا، ويمكن الحديث، في إطار (مابعد الحداثة) ، عن أربعة منظورات تجاهها، المنظور الفلسفي الذي يرى أن (مابعد الحداثة) دليل على الفراغ بغياب الحداثة نفسها؛ والمنظور التاريخي الذي يرى أن (مابعد الحداثة) حركة ابتعاد عن الحداثة أو رفض لبعض جوانبها؛ والمنظور الإيديولوجي السياسي الذي يرى أن (مابعد الحداثة) تعرية للأوهام الإيديولوجية الغربية؛ والمنظور الإستراتيجي النصوصي الذي يرى أن مقاربة نصوص (مابعد الحداثة) لاتتقيد بالمعايير المنهجية، وليست ثمة قراءة واحدة، بل قراءات منفتحة ومتعددة. [٢]
ويعني هذا كله أن المثقف المعاصر قد استفاد من نظريات الحداثة. كما استفاد أيضا من نظريات ما بعد الحداثة في بلورة خطابه الثقافي.
(١) - ديفيد كارتر: نفسه، ص:١٣١.
(٢) - سعد البازعي وميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، ص:١٤٣.

(العولمة: إذا كان كلود ليفي شتراوس يدعو إلى التكامل والتنوع الثقافي، فإن العولمة جاءت لتغريب الثقافة وتزييفها واستلابها وتدجينها، كما يتضح ذلك جليا عند فرنسيس فوكوياما الذي أعلن نهاية التاريخ؛ وآلفين توفلر (Alven Toffler) القائل بالثالوث: الثروة، والعنف، والمعرفة [١]، على أساس أن القوة والمعرفة تؤديان إلى تحصيل الثروة

والاستيلاء عليها، ولو باستعمال العنف؛ وصمويل هنتغتون (Samuel Phillips Huntington) الذي قال بصراع الحضارات [٢] ضمن إشكالية الصراع بين الشرق والغرب، وقد أثبت أن هناك ثلاثة أنواع من الحضارات بالنسبة للموقف الغربي والأمريكي: الحضارة المتحدية (الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية) ؛ والحضارة الضعيفة (حضارة أمريكا اللاتينية وأفريقيا) ؛ والحضارات المتأرجحة التي تتمثل في الحضارة الروسية، والحضارة الهندوسية، والحضارة اليابانية، وهي تتأرجح في تعاملها مع الغرب الأمريكي إيجابا أو سلبا، صراعا أو تعاونا.

وعليه، يعد هذا القرن المعولم أو "المغولم" ثقافيا "قرن التوتر والحيرة والقلق، حيث الثقافة أصبحت، بكيفية ما، قادرة على الافتراس أيضا" [٣].

(تغير البراديغمات الثقافية: تتغير الثقافة بتغير البراديغمات والنماذج المعرفية والعلمية والأدبية والفنية نظرية وتطبيقا وممارسة ووظيفة. بمعنى أن التحول الثقافي يتحقق بفعل تغير النظريات والنماذج والبرديغمات العلمية التي تظهر من حين لآخر، كما يثبت ذلك

(١) - Alven Toffler :The Third Wave (١٩٨٠) Bantam Books.

(٢) - Samuel Huntington, Le Choc des civilisations, Editions Odile Jacob, Paris, ١٩٩٧.

(٣) - عبد الغني عماد: نفسه، ص:٢٣.

توماس كون (T.Kuhn) في كتابه (بنية الثورات العلمية) [١]. أي: تتغير الأنساق الثقافية بتغير البراديغمات والنماذج والنظريات والمناهج والافتراضات العلمية. وفي هذا، يقول جاك هارمان: "تعتبر النظرية العلمية جهازا مفهوميا ذا طابع رمزي ومنطقي، يستجيب لعدة شروط، منها الملاءمة في مواجهة إشكالية محددة وموضوعات معينة، والتماسك فيما يخص مجموعة المفاهيم والقضايا التي تستعملها (النظرية) ، والاختبار في مواجهة إجراءات عملية ميدانية توظف لجمع المعطيات (البيانات) .تقوم النظرية دائما بعملية اختزال لحقل المشكلات التي مهدت لبلورتها، إنها محددة وتشير إلى مجال دقيق ومحدد من الواقع. إضافة إلى ذلك فهي تحتفظ بطابع افتراضي، قابلة للمراجعة،

قابلة لإثبات خطئها، ولا تستطيع أبدا اعتبارها صادقة بشكل نهائي دون أن نعرضها باستمرار للاختبار أو مواجهة وقائع أخرى ونظريات أخرى."

إن الخطاب العلمي هو عبارة عن مجموعة من الرموز تتمتع ببناء نحوي، وقواعد دلالية تمنح مرجعية معنى لمفاهيم ذلك الخطاب. لكن خلافا للنظرية، لايمكن اعتبار الخطاب قابلا للاختبار بل يمكن اعتباره ملائما بدرجة أو بأخرى لمعالجة مشكلة ما، أو مناسبا لفئة معينة من الموضوعات. فالخطاب، في هذه الحالة، يمثل بالنسبة للنظرية ما يمثله الغلاف بالنسبة للهدية.

(١) - T.Kuhn : La structure des revolutions scientifiques, ١٩٧٠.

يمثل الأنموذج أو البراديغم مزيجا من افتراضات فلسفية، أنموذجيات نظرية، مفاهيم مفتاحية، نتائج بحوث قيمة، تشكل في مجموعها عالما مألوفا للتفكير لدى الباحثين في فترة محددة من تطور تخصص علمي معين. "[١]"

وإذا كان توماس كون يتحدث عن البراديغم أو النموذج العلمي، فإن بيير بورديو يتحدث عن الهابيتوس أو نظام الاستعدادات والتصورات (Habitus) . في حين، يتحدث ماكس فيبر عن البيروف (Beruf) ، وهذه النماذج العلمية والاجتماعية كلها تسهم في تغيير الثقافة وشؤونها.

إذاً، فعوامل التغير الثقافي متعددة ومتنوعة ومختلفة. ومن ثم، لايمكن الحديث عن عامل واحد ووحيد يتحكم في التغير الثقافي، بل هناك عدة عوامل متداخلة ومتشابكة ومتفاعلة فيما بينها.

(١) - جاك هارمان: خطابات علم الاجتماع في النظرية الاجتماعية، تعريب: العياشي عنصر، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٠ م، ص:١٥ - ١٦.

اضمحلال الثقافة

تخضع الثقافة الإنسانية والبشرية لقانون التطور والارتقاء والصراع الجدلي. فبعد أن تهيمن ثقافة ما على عرش الصدارة، وتسيطر على دواليب المركز، وتسود لفترة تاريخية أو زمنية معينة، بفضل قوتها التحديثية والإنتاجية والابتكارية والإبداعية، فإنها إن لم تحافظ على تلك

المكانة بقوة السلطة والعلم والتقنية واللغة والإنتاج، فإن ثقافة الفرع أو الهامش يمكن أن تدخل معها في صراع جدلي، حتى تهيمن عليها بفضل مقوماتها التجديدية والحداثية الخاصة بها. ويعني هذا أن الثقافة، في جوهرها، صراع بين الأنساق الثقافية بامتياز، كما يقول بذلك إيتامار إيفان زهر (Itamar Even-Zohar) [١] . وغالبا، ما تترجم لنا هذه الإشكالية تأثر المغلوب بالغالب؛ لأن الثقافة تنهار وتضمحل بتقليد ثقافة الأجنبي، وتمثل أنساقها الثقافية، باستيعابها واحتوائها والاندماج فيها تغريبا وتدجينا واستلابا.

ويعني هذا كله أن "الثقافات قد تتفكك بكيفية ما، وتفقد مكانتها العالمية، بل حتى المحلية إذا بدأت تدخل في فلك ثقافة جديدة تستقي منها قيما لاصلة لها بها. فالثقافة، في"

(١) - Even-Zohar (Itamar) , «Polysystem Studies», numero special de Poetics Today, vol. ١١, no ١, ١٩٩٠.

المحصلة، هي وعي واستجابات لمتطلبات واقع تسيطر عليه وتتحكم به، ويكون هو نفسه جزءا منها. وإذا لم يكن كذلك تصبح بالضرورة وعيا بالعجز وإدراكا للقصور. يعني هذا أن من يخلق الوقائع والتاريخ هو الذي يفرض القيم المرتبطة بسلطته، وبالتالي تكون الهيمنة الثقافية محصلة العمليات الثقافية لاعلتها. وما يميز الهيمنة الثقافية الراهنة عن هيمنة الثقافات القديمة الكبرى، أنها مدعمة بمزيج من التكنولوجيا الصريحة والإيديولوجيا المضمرة، وأنها تحمل رؤية تشوبها العنصرية الثقافية، والتي يطلق عليها إثيان باليبار "العنصرية التفاضلية" ، وهي عنصرية دونما عنصر، تلعب فيها الثقافة دور البيولوجيا في العنصرية الكلاسيكية. "[١]"

هذا، ويرتبط سقوط ثقافة ما بعوامل ذاتية وموضوعية عدة، وخاصة عندما تتحول الثقافة السائدة أو المهيمنة إلى ثقافة تقليدية أو شعاراتية أو ثقافة محافظة، لاتعي مفارقات الواقع، ولا تعنى بتحولاته الجدلية الكمية والنوعية، ولا تستوعب مستجدات الحداثة أو التحديث على حد سواء؛ مما يعرضها ذلك للتضعضع والاندثار والاضمحلال لتحل محلها الثقافة المتقدمة الغالبة. ويعني هذا أن الثقافة "ليست ماهية ثابتة، أو معطى جامدا، إنما هي محصلة حقل تفاعلي، يرسم علاقة توتر دائما بين الوعي والواقع، بين الذات والموضوع، بين الحاضر والمستقبل والحلم

والإمكان. قد تنجح الثقافة في تجاوز هذا الجدل عبر الإضافة والإغناء دون التضحية بأحد طرفيه، وقد تذبل وتضمحل متى تعمق الانفصال بين الوعي والواقع، وتتحول بالتالي إلى طقوس وشعائر وفلكلور يكتفي بتغذية الذاكرة." [٢]

(١) - عبد الغني عماد: نفسه، ص:١٨.

(٢) - عبد الغني عماد: نفسه، ص:١٨.

وهكذا، تخضع الثقافة لسنة التطور والتحول والتغير على غرار الإنسان، فتبدأ الثقافة في الظهور والتكون والتبلور والنشأة حتى تصبح ثقافة ناضجة ومزدهرة ومتكاملة. وبعد ذلك، تتعرض للاندحار والاضمحلال كالإنسان الذي يعيش الطفولة والشباب والكهولة.

المبحث الثامن: مفاهيم ومصطلحات ثقافية

يمكن الحديث عن مجموعة من المفاهيم التي لها علاقة بسوسيولوجيا الثقافة، سواء أكان ذلك من قريب أم من بعيد، مثل: الثقافة- الحضارة- المجتمع- الشخصية- المعرفة- المثقف- النسبية الثقافية- التنوع الثقافي- المثاقفة- التعددية الثقافية- التثاقف- التطور الثقافي- التغير الثقافي- التفاعل الثقافي- الأنتروبولوجيا الثقافية والاجتماعية- التراكم الثقافي- التكامل الثقافي- التغير الثقافي- الرأسمال الثقافي- الكتلة التاريخية- المثقف العضوي- المواقع الإيديولوجية- التأثير الثقافي- النتاجات الثقافية- تصنيف المثقفين- الهيمنة الثقافية- التهجين الثقافي- الطبقة المثقفة- المنبت الطبقي- الوضع الطبقي- الثقافة الشعبية-الثقافة الجماهيرية- البنية الفوقية والبنية التحتية- الإيديولوجيا -اليوتوبيا- الأطر المعرفية- التهجين الثقافي- التداخل الثقافي- الدراسات الثقافية- عبر الثقافي-الأنماط

الثقافية العامة - السمات الثقافية [١] - المركب الثقافي [٢] - الأنماط الثقافية- التوتر الثقافي- محددات الثقافة- آليات التفاعل الثقافي- الأنساق الثقافية المتعددة- الهامش والمركز- الثقافة العالمية أو الكونية- الثقافة المحلية والوطنية والقومية- الممانعة والمقاومة الثقافية- الأصالة والمعاصرة- الذاتية والموضوعية- الكائن البيوثقافي- الجبرية والطوعية- الحقائق والقيم- تغير الأذواق - التغير والاستقرار- البنية والتغير- الفرد والجماعة- الاضمحلال الثقافي أو سقوط الثقافة- النظم الاجتماعية (مالينوفسكي) - الهوية الثقافية- الخصوصية الثقافية- الحقل

الثقافي (بيير بورديو) - التمركز حول الذات- العقل الجمعي (إميل دوركايم) - الهابيتوس (بيير بورديو) - النسق الثقافي (تالكوت بارسونز) - الرأسمال الرمزي (بورديو) - البيروف (ماكس فيبر) - الصراع الجدلي (هيجل وماركس وأنجلز) - الباريديغم (توماس كون) - الثقافة الشعبية- الفلكلور- الأدب الشعبي- النخبة المثقفة- الثقافة الرمزية- الفاعل الثقافي- العمليات الثقافية- التلاقح الثقافي- الترجمة- الأدب المقارن- العولمة- والتقانة- والهيمنة- صراع الثقافات والحضارات- الهيمنة الثقافية- الآخر الثقافي- الإثنوغرافيا والأنتروبولوجيا- الظواهر الثقافية- المساحة الثقافية-السلوك الثقافي- العالم الثقافي- المجتمع الثقافي- الغياب الثقافي -المعاني الثقافية- النموذج الثقافي- النظم الثقافية- النسق الثقافي [٣] - العناصر الثقافية- الشخصية الأساسية- الشخصية الوظيفية- العناصر الثقافية- الإجابة الثقافية- الانتشار الثقافي-الدوائر الثقافية- الثقافات المركزية-المناطق الثقافية- التحيز الثقافي- الفوارق الثقافية-

(١) - السمة الثقافية هي العنصر الذي لايمكن تجزئته أكثر، مثل: خاتم الخطبة، والدبكة، والحجاب، والرقص ...

(٢) - مجموعة من السمات، مثل: تعدد الزوجات وكثرة المهور، كثرة الأعراس وكثرة التكاليف ...

(٣) - النسق الثقافي مجموعة من النظم الدينية والعائلية والفنية والدينية ...

الإيكولوجيا الثقافية- الممارسات الثقافية- الثقافات الإنسانية-التراث الثقافي- التراث اللامادي- الثقافة الفرعية ...

الخاتمة

وفي الأخير، نستنتج، مما سبق قوله، أن الثقافة مصطلح عام وعائم وفضفاض في دلالاته اللغوية والاصطلاحية، ويختلف من حقل معرفي إلى آخر. وبالتالي، فالثقافة من المفاهيم الغامضة في الثقافتين: الغربية والعربية على حد سواء.

وتختلف مدلولات الثقافة، بطابعها المعنوي والروحاني، من البنيوية إلى الأنتروبولوجيا إلى ما بعد البنيوية. وتندرج الثقافة - مجاليا- ضمن الحضارة التي تنقسم إلى شقين: الشق المادي والتقني الذي يسمى بالتكنولوجيا (Technologie) ؛ والشق المعنوي والأخلاقي والإبداعي الذي يسمى بالثقافة (Culture) .

ومن جهة أخرى، تتميز الثقافة بمجموعة من السمات والخصائص والمكونات، فهي خاصية مجتمعية إنسانية، وتجاوز للطبيعة ونقيض لها. وبالتالي، فهي منفتحة على الثقافات الأخرى عبر آليات الاحتكاك، والتبادل، والتثاقف، والتناص، والتعاون، والتنافس، والتداخل، والصراع، والهيمنة ...

هذا، وتفصل الثقافة المركز عن الهامش تفاوتا وتباينا واختلافا، ضمن التقابل الجدلي الموجود بين الغالب والمغلوب. وتعبر الثقافة أيضا عن نضج الإنسان ومدى تطوره وسموه وارتقائه في مدارج الحضارة والتقدم والازدهار. كما أنها علامة على مدى تحضر الدول ونموها اقتصاديا واجتماعيا، ودليل قاطع على مدى رقي شعوبها بغية تحقيق التنمية البشرية.

وثمة مجموعة من المقاربات التي تناولت الثقافة بالدرس والتحليل والفهم والتفسير والتأويل، منها: المقاربة الثقافية، والمقاربة التطورية، والمقاربة التاريخية، والمقاربة البنيوية اللسانية، والمقاربة البنيوية الوظيفية، والمقاربة السوسيولوجية، والمقاربة التأويلية، والمقاربة الإيديولوجية ...

هذا، ويخضع التغير الثقافي لمجموعة من العوامل التي حصرناها في العوامل الطبيعية والمناخية، والعوامل الجغرافية والسكانية، والعوامل الدينية، والعوامل الثقافية والإيديولوجية، والعوامل التقنية، والعوامل النفسية، وعامل الحداثة، وعامل ما بعد الحداثة، وعامل العولمة ...

ومن جهة أخرى، هناك مجموعة من المفاهيم والمصطلحات التي يستند إليها علم الاجتماع الثقافي، في مختلف حقوله وأنساقه المعرفية المركزية والفرعية.